



رحلة الثلوج..



عبدالله بن علي السعد - السعودية

كان لابد أن أنتهي من عملي مبكراً، فالحافلات هنا تتحرك في مواعيدها دون أي تأخير.. ولذلك يجب التوجه قبل موعد المغادرة بوقت كاف لأتمكن من إنهاء الإجراءات. لم يكن التبكير يمثل لي مشكلة لأنني لا أحب التأخر عن مواعيدي.. وزيادة في الحرص استأذنت مديري في تقديم مواعيد محاضراتي ونسقت مع أحد الزملاء بشأنها، لأتمكن من الخروج قبل نهاية اليوم الدراسي لترتيب أغراضي.

كانت زوجتي قد سبقتني منذ يومين.. وقد حاولت في فترة غيابها أن لا أكثر من استخدام الأواني المنزلية لأنني لا أحسن ترتيب البيت.. ولم أستخدم غرفة النوم أيضاً، واكتفيت بأريكة الصالة، وبهذا قلت المساحة المستخدمة لمعيشتي.. ولم أحاول استعمال المطبخ لصنع أي شيء.. وهكذا ضمنت أقصى حد للنظافة في المنزل.. أمر واحد بقي يشغلني وهو الحمى التي أصابتني قبل يومين.. وظلت تعاودني بين ساعة وساعة، وتشتد علي في الليل.. ولذلك حجزت على رحلة الضحى لأصل إلى مدينتي بعد العصر.

في الساعة العاشرة كنت قد أنهيت آخر محاضراتي.. فحملت حقبتي الصغيرة وانطلقت إلى محطة الحافلات.. وفي ربع ساعة وصلت إلى هناك..



كانت الحركة نشيطة في المحطة.. صوت المذياع يصدح بموسيقى الصباح ويملاً الجو ضجيجاً.. ورائحة القهوة تفوح من أكشاك بيع الصحف.. وعمال المحطة ينتشرون هنا وهناك.. والأرصفة تمتلئ بالحقائب.. نظرت إلى ساعتى.. كانت تشير إلى العاشرة والثلاث.. بقي عندي قرابة خمس وعشرين دقيقة قبل موعد الانطلاق.. أسرعت إلى شباك التذاكر..

- هل لديك حقائب؟

- لا.. فقط حقيبة صغيرة سأحملها معي.

- يمكن أن تتأخر الحافلة.. الطريق مليء بالثلوج.

- ولكن الجو صحو تقريباً.

نظر إلي الموظف ثم تابع عمله.. ومن دون أن يلتفت إلي أضاف:

- ولكن الجو في المدينة الأخرى غائم.. والثلوج تسقط طوال ليلة البارحة.

ابتسمت له وأخذت تذكرتي وشكرته.. ثم اتجهت إلى الرصيف المخصص للرحلة.

كان هناك بعض المسافرين يقفون في انتظار الحافلة.. اتجهت الأنظار إلى الجهة التي ستصل منها المركبة.. وبدأ الجو يتغير.. تأخرت السيارة ومرت الوقت بطيئاً.. ومع النسمات الباردة، شعرت بالتعب والمرض يزحفان إلى جسدي وأوصالي.. وفي الساعة الثانية ظهرت الحافلة.. ومع صيحات التذمر التي كانت تصدر من الناس وصل صوت السائق متذمراً متعباً.. ومنذراً برحلة صعبة فالأجواء سيئة جداً.. والطريق شبه مغلق في بعض المناطق.. أو سيغلق بالكلية.

انطلقت بنا الحافلة وحل التعب بالناس.. مع أننا لازلنا في بداية الرحلة.. ولكن فترة الانتظار أجهدت البعض وبدأ ذلك على قسماتهم.. كان الجو قد أخذ في التغير.. والسماء شبه الصافية لم تعد كذلك فقد امتلأت بسحاب أسود يؤذن بهطول الأمطار. وكان من المقرر أن تقطع الرحلة في ست ساعات.. ولكن مع سقوط الأمطار أخذ السائق في تخفيف السرعة.. وبتساقط الثلج أصبحت حركتنا أكثر بطئاً.. واضطررنا إلى التوقف أكثر من مرة بسبب تعطل بعض السيارات.. كما أوقفنا الشرطة

للتأكد من وجود سلاسل على إطارات السيارات.

بدأت الحمى تشتد علي.. شعرت بالبرد يعانق عظامي.. جلست في مقعدي والتفتت على نفسي.. وأخذت أتأمل في المنظر خارج الحافلة.. كانت حبات المطر قد بدأت تتكاثف.. ورقاقات الثلج أخذت تتساقط.. ورأيت رجال الأمن على جانبي الطريق يفحصون السيارات ويرجعون بعضها.. تغيرت السماء بما يوحي بليلة شديدة الأمطار والثلوج.. ومع مغيب الشمس كنا قد مشينا في الطريق السريع ولكننا نسير ببطء.

اشتدت علي الحمى.. وبدأت أروح في غيبوبة بين لحظة وأخرى.. الألم يمزق مفاصلي.. ثم توقفت الحافلة وشعرت بحركة غريبة بين الركاب.. اقترب السائق مني.. ووضع يده على رأسي.. كنت أراه كالطيف لا أكاد أميزه.. وسمعته يخاطب بعض الركاب يطلب منهم النزول لمساعدته في تحريك الحافلة من مكانها.. ثم نظر إلي ثانية وهمس لمراقفه.. إنه محموم.. لم يكن هذا اليوم مناسباً لسفره.

كنت أفكر في صغيري.. وأحسست بالوقت يمر بتأقل.. خرجت من مكاني لأرى ماذا يفعل الرجال.. كانت عجلات الحافلة مغطاة بالثلوج.. وكان الهواء البارد يضرب وجهي ورأسي فيزيد ألمي.. التفت إلي أحد الواقفين:

- أنت.. لماذا خرجت؟ ارجع مكانك، سوف تشتد عليك الحمى.

- أريد أن أساعدكم.

- لا يمكنك ذلك.. أنت مريض.. كما أننا نوشك أن ننتهي.. ارجع إلى مكانك.

عدت إلى مكاني ثانية.. كان كل الرجال في الخارج.. لم يبق سوى النساء والأطفال وأنا.. عند الثانية عشرة ليلاً تحركت الحافلة بحمد الله وخرجنا من مكاننا.

مرت ساعتان قبل أن نصل إلى وجهتنا.. هناك كان الثلج يغطي كل شيء.. يمكن أن نرى أثر العاصفة الثلجية التي أوقفت الطريق.. فقد كان الثلج يبدو كدغوة صابون كبيرة غطت كل شيء.. وبدت المدينة كأنها لبست رداءً أبيض ثقيلًا.. كان علي أن أجد سيارة أجرة تنقلني إلى منزلي.



ورميت بنفسي عليها لكي أبعد جسمي عن الثلج.. أمسى شبح الموت يتمثل لي في كل آونة، أخذت أتخيل صغيري وأبتسم: ترى ماذا يفعل في هذه الساعة؟! وقفت مرة أخرى وتابعت السير.. لم أعد أحس بالألم مثل السابق.. ولكنني كنت أشعر بأنني سأموت قبل أن أصل إلى المنزل.. وعند الساعة الرابعة لاحت لي المنازل القريبة من منزلي وعادت الروح برويتها إلى صدري.. اشتد عزمي على المتابعة.. وعند الرابعة والنصف وصلت إلى منزلي.

كان البرد يضرب كل جسمي.. ولم أعد أشعر بالتعب، ولكنني كنت أمشي مترنحاً.. وضعت يدي على الباب الخارجي عاجزاً عن قرعه.. ثم جمعت ما بقي من قوتي وطرقت الباب بهدوء.. سمعت حركة خلف الباب.. وصوتا يسأل..

- من هناك؟

- هذا أنا!!

فتح والد زوجتي الباب ووقفت زوجتي وأمها خلفه.. أوه هذا أنت!! كيف وصلت هنا في هذا الساعة؟! ابتسمت لهم: - أتيت مشياً..

ثم لم أعد أشعر بشيء بعد ذلك.

- استيقظت من النوم حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً.. نشيطاً.. سعيداً.. نظرت إلى زوجتي. كانت تجلس بجواري.. فابتسمت لي وسألتني..

- كيف حالك؟

- أنا بخير.. يبدو أنني نمت جيداً.

- بقيت مبتسمة..

- نعم هو كذلك.

- أين الصغير؟ أريد أن أراه.

- إنه نائم في الأعلى.. سأحضره لك إذا استيقظ.

- هل انتهى الثلج في الخارج؟

- أتدري أنك نمت ثلاثة أيام؟

صدمني كلامها.. فنظرت إلى التاريخ في الساعة.. لقد كنت في غيبوبة لمدة ثلاثة أيام.. رفعت رأسي إليها وابتسمت في تردد.. وقطع علي دهنولي صوت الصغير وهو يبكي ■

توقفت أمامي سيارة ونظر إلى السائق مبتسماً.. - اسمع لن تجد سيارة أجرة.. مارأيك أن أفلك؟ بادلته الابتسامة:

- حسناً.. هل يمكن أن تقلني إلى قرية الجبل؟ تردد قليلاً.. ثم قال:

- للأسف، الطريق ستكون مغلقة بالتأكد، فهناك الأحوال أشد مما هي عليه هنا. - إذا سأنتظر سيارة أجرة.

- اسمع يا عزيزي.. اليوم لا توجد سيارات أجرة.. ولو وجدت فلن يقلك أحد إلى هناك.. ولكنني سأوصلك إلى آخر نقطة يمكن أن تسير فيها السيارة، ثم عليك أن تتابع أنت أو تنتظر سيارة توصلك إلى منزلك. فكرت قليلاً.. وبدا لي كلامه وجيهاً.. واتفقنا.

وصلت في الثانية والربع إلى أسفل القرية.. وعلي بعدها أن أقطع مسافة أربعة كيلو مترات قبل أن أصل إلى بيتي.. وبدا لي الطريق إلى القرية مقطوعاً فعلاً، فلا أثر على الثلج.. مما يدل على توقف حركة السير، حاول قائد السيارة أن يقربني إلى آخر نقطة ولكن الطريق أصبح خطراً علينا.. فقد التحكم في السيارة فاضطر إلى التوقف، كان علي حينها أن أنزل وأكمل بقية الطريق مشياً على قدمي.

لم أعد أشعر بالحمى، فتفكرت في الوصول إلى ابني جعلني أشعر بنوع من النشاط.. ولكن مفاصلي تؤلمني.. كان هناك طريقان يوصلان إلى القمة.. علي أن أختار أحدهما.. ولأن الأجواء لم تكن تبشر بسيارة تمر في هذه الساعة من هذا المكان فقد اخترت الطريق الأقصر مع أن حركة السير فيه أقل.. حملت حقيبتي وانطلقت في طريق متعرج شديد الانحدار. المسافة لم تكن طويلة.. ولكن في هذه الظروف تراءت لي الطريق طويلة، ومع أول جزء فقدت الإحساس بأي شيء حولي، وتسارعت أنفاسي ولم أعد أرى شيئاً حولي.. ولكنني تابعت المسير وحبات المطر تبلل وجهي والبرد يتسرب إلى أعماقي.

كان السير وسط الثلج صعباً.. وكلما مررت بجوار منزل نبحت علي كلابه فأسرع في مشي كيلا يستيقظ أهله ويظنوا أنني لص.. ألقيت حقيبتي على الأرض